الفصل الرابع

الفُضَيل والدُّعاء

إن الدعاء مظهر من مظاهر الخضوع والتواضع والعبودية، ومن أجل ذلك يكثر الصالحون من الدعاء لأنفسهم ولأهليهم ولأصدقائهم وللمسلمين على وجه العموم، وهم فى ذلك يستجيبون لله سبحانه فى حثه المؤمنين على الدعاء:

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾(١).

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾(٢).

ويستجيب الفضيل إلى القرآن ويتابع أسلافه فى ذلك، فيروى أحاديث عدة فى الدعاء منها: ما رواه الفضيل ـ بسنده ـ عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« إِنَّ اللهَ كَرِيمٌ حَيِيٌّ، يَكْرَهُ إِذَا بَسَطَ الرَّجُلُ يَدَهُ أَنْ يَرُدَّهَا صِفْرًا لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ ».

وروى الفضيل ـ بسنده ـ عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ:

« الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ، لأَنَّ اللهَ تعَالَى يقول:

---

(١) سورة غافر: ٦٠.

(٢) سورة البقرة: ١٨٦.

﴿ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[1].

وروى الفضيل ـ بسنده ـ عن أم سلمة رضي الله عنها قالت:

كان رسول الله ﷺ إذا خرج من بيته قال:

« اللهُمَّ إنِّى أعــوذُ بكَ أنْ أَزِلَّ أو أُزَلَّ،أو أَضِلَّ أو أُضَلَّ، أو أَظْلِمَ أو أُظْلَمَ، أو أَجْهَلَ أو يُجْهَلَ علىَّ ».

وروى الفضيل ـ بسنده ـ عن أبى هريرة رضي الله عنه قال:

أخذ كعب بيدى ، فقال: خذ منى اثنتين:

« إذا دَخَلْتَ المَسْجِـدَ فَصَلِّ علَى النبىِّ ﷺ وقل: اللهُمَّ افتحْ لى أبوابَ الرَّحْـمـةِ. وإذا خَـرَجْتَ فَـصَلِّ على النـبىِّ ﷺ وقل: اللهُمَّ احفَظْنِى مِنَ الشَّيطان ».

وكان الفضيل يتابع رسول الله ﷺ فى دعائه، ويسير على نسقه ﷺ فى الدعاء متخذًا الرسول أسوة حسنة.

وكان من دعائه:

« اللهُمَّ أعِزَّنا بعِزِّ الطَّاعةِ، ولا تُذِلَّنا بِذُلِّ المَعْصِيَةِ ».

وكان إذا اشتكى يردد :

« ربِّ إنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ وأنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمين ».

---

(١) سورة غافر : ٦٠ .

وكان كثيراً ما يردد:

« اللَّهُمَّ ارْحَمْنى فَإِنَّكَ بِى عَالِمٌ، ولا تُعَذِّبْنى فَإِنَّكَ عَلَىَّ قَادِرٌ ».

وكان يقول:

« اللهُمَّ زَهِّدْنَا فى الدُّنْيَا فإنَّهُ صَلاَحُ قُلُوبِنَا وأعْمَالِنَا وجَمِيعُ طلبَاتِنا ونجاحُ حَاجَاتِنا ».

والدنيا التى يضرع كل الصوفيـة إلى الله أن يزهِّدهم فيها إنما هى الشهـوات والأهواء والنزغات، وهى ما عـبر الله تعالى عنه واصـفاً إياها وصفاً دقيقاً:

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾[1].

ويقول سبحانه:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾[2].

---

(١) سورة الحديد: ٢٠.

(٢) سورة آل عمران: ١٤.

ويقول سبحانه:

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾[1].

ولعل الأمر لا يلتبس على الناس فى ذلك ، فكل ما كان فسادًا أو حَثًّا على الفساد فهو الدنيا، أما الثراء الطيب، والكسب الحلال والضرب فى الأرض، والسعى فيها بالصورة الكريمة التى لا مخالفة فيها للدين، والتى أخلص الإنسان فيها وجهه لله، فإنها مطلوبة، ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يضربون فى الأرض ويكتسبون المال من حِلِّه، وينفقون منه فى سبيل الله، ويتصدقون ويبنون المساجد ويساعدون الفقراء والمساكين، وكل ذلك جهاد فى سبيل الله.

فليس معنى الزهد فى الدنيا أن يكون الإنسان عالة على الآخرين أو أن يكون فقيرًا. كَلاَّ، واليد العليا خير من اليد السفلى .

ولقد كان سيدنا عبد الرحمن بن عوف، وسيدنا عثمان من كبار الأثرياء، وهُمَا مَنْ هُمَا: زهدًا، وتقوى، وعبادة، وإخلاصاً لله سبحانه وتعالى.

والعمل فى الإسلام هجرة إلى الله ما دام المقصود منه وجه الله سبحانه وتعالى:

«إنما الأعْمَالُ بالنِّيَّاتِ، وإنما لكلِّ امْرِئٍ ما نَوَى ، فَمَنْ كانَتْ

---

(١) سورة الأنعام : ٣٢ .

هجْرتُه إلى الله ورَسُوله فَهجْرتُه إلى الله ورَسُوله، ومَنْ كانَتْ هجْرتُه لدُنيا يُصيبها أو امرأة يَتزوَّجُها، فهجرتُه إلى ما هَاجَرَ إليه»[1].

وعلى ضوء هذا نفهم موقف الصوفية من الزهد فى الدنيا.

ونعود بعد ذلك إلى الفضيل والدعاء، وإن من طريف ما يروى فى ذلك عنه قوله:

« لَوْ أنَّ لِى دَعْوَةً مُسْتَجَابَةً مَا صَيَّرْتُهَا إلاَّ فى الإمَام(الحَاكِم)».

فقيل له: ولِمَ ذلك يا أبا على ؟

فقال: **«متى ما صَيَّرتُها فى نَفْسى لم تَتجاوزْنى، ولكنِّى إذا صَيَّرتُها فى الإمام فإنه يكون فى ذلك صَلاحُ العباد والبلاد»**.

فقيل له: وكيف ذلك يا أبا على، فَسِّرْ لنا هذا ؟

فقال:

«أمَّا صَلاحُ البلاد فإنَّه إذا أمنَ الناسُ ظُلْمَ الإمَامِ، عَمَّروا الخرابات، ونَزلُوا فى الأرضِ لإصْلاحِها، وأمَّا صَلاحُ العِباد فإن الحاكمَ ينظرُ إلى ذَوى الجَهْل فيرَى أنه قد شَغَلَهُمْ طَلَبُ المعيشَةِ عن طَلَبِ ما يَنفعُهم مِنْ تَعلُّم القُرآن وغيره: فيَجْمَعُهمْ فى دُور خمسينَ خمسينَ، أو أقلَّ أو أكثرَ، ويُعلِّمُهم أمورَ دِينهم ويعرِّفُهم أنَّ ذلكَ هو

---

(١) رواه الإمامان البخارى ومسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ما يُصْلِحُهُمْ. وينظرُ إلى أصْحَابِ الثَّراءِ ويأخذُ مِنْ زَكاتِهِمْ ويَردُّها على فُقرائِهِمْ، فيكونُ فى ذلكَ صَلاَحُ العِبادِ » اهـ.

وكان بمجلس الفضيل حينئذ ابن المبارك العالم الورع، فسمع ذلك فما ملك أن قام فقبَّل جبهة الفضيل، وقال له فى ـ إعجاب ـ:

« يا مُعَلِّمَ الخير، مَنْ يُحْسِنُ هَذا غَيرُك ؟».

***